الطائفية و"الحرب الأهلية" في سورية

Sectarianism and “Civil War” in Syria

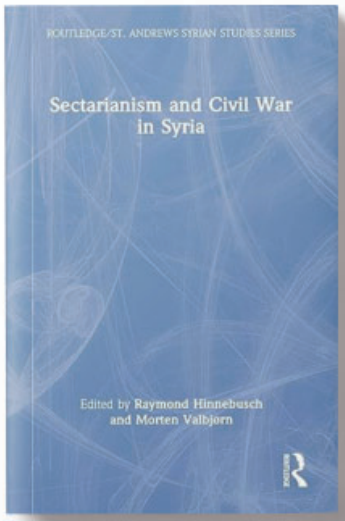

العنوان:

الطائفية والحرب الأهلية في سورية

Sectarianism and Civil War in Syria

المؤلف: مجموعة مؤلفين

ريموند هينبوش Raymond Hinnebusch ومورتن فالبِورن Morten Valbjørn (محرران)

لغة الكتاب: الإنجليزية

الناشر: London and New York: Routledge (2025)

عدد الصفحات: 414

انطلاقًا من فرض أن سورية تعد مثالًا مهمًا لدراسة الطائفية والتسييس على أساسها (التطييف)، يقارن الكتاب بين تباينات الطائفية في البلاد للكشف عن أسبابها وتأثيراتها المتفاوتة في المجتمع والنظام السياسي. يستعرض الكتاب مقاربات ومناقشات رئيسة حول الطائفية في سورية، مستمدًا منها إطارًا تحليليًا. ويتناول جوانب جوهرية للطائفية في المستوى الوطني، باحثًا في التفاعل بين الطائفية وبناء الدولة في المدى البعيد، وعملية التطييف في أثناء الانتفاضة (الاحتجاجات والثورة)، وتأثير الصراع الإقليمي في ذلك. ويناقش الكتاب مسألة ما إنْ كانت الطائفية قد صيغت مؤسسيًا، من خلال نمط الحكم في المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة كل من النظام السابق والمعارضة. كذلك، يركز الكتاب على الطائفية في مدن ومناطق ومكونات مجتمعية سورية متنوعة، ولا سيما في دمشق وحمص وحماة وحلب وإدلب والساحل (العلوي)، بالإضافة إلى المكونات الدرزية والمسيحية. يسعى الكتاب لتجاوز التفسيرات الاختزالية التي تنظر إلى الحالة السورية بوصفها مواجهة بين جماعات طائفية متناحرة، مقدمًا قراءة أكثر تركيبًا للطائفية، بوصفها ظاهرة تاريخية وسياسية واجتماعية تطورت ضمن سياقات التاريخ (العربي الإسلامي وصولًا للاستعمار الغربي) وعلاقة الدولة والمجتمع بالسلطة والنزاعات الإقليمية والدولية.

يعتمد الكتاب على دراسات حالة وبحوث ميدانية لفهم الكيفية التي تفاعلت بها الهويات الطائفية مع ما يدعوه بـ "الحرب الأهلية السورية". إن الطائفية (والتطييف أو توظيف الطائفية سياسيًا) ليست مسلمةً أو جوهرًا متأصلًا في المجتمع السوري، بل بناءً اجتماعيًا وسياسيًا متغيرًا، وقد تشكّل تاريخيًا بتأثير من عوامل متعددة. يأتي ذلك ردًا على تفسيرات ترجع الحرب السورية الأخيرة إلى "كراهية طائفية متجذرة". بدلًا من ذلك يتبين لقارئ الكتاب أن المشكلة تكمن في تسييس الهويات الدينية والطائفية والإثنية، وتحويلها إلى أدوات للتعبئة والحشد والصراع. من هنا، يُبرز الكتاب دور سياسات السلطة طيلة عقود في إنتاج الانقسامات المجتمعية، إلى جانب دور فاعلين محليين وإقليميين (ودوليين) في تعميق الاستقطابات الطائفية خلال سنوات الحرب (وبعد التحرير طبعًا). يهتم الكتاب بالعلاقة بين انهيار الدولة وتصاعد الهويات الفرعية، فمع تراجع قدرة المؤسسات الرسمية على احتكار العنف وضبط المجال العام، أصبحت الانتماءات الطائفية والمذهبية أكثر حضورًا في تنظيم الولاءات السياسية والعسكرية. إلا أن ذلك لم يكن حتميًا، بل نتيجة تفاعل معقد بين بنى السلطة وشبكات المصالح والسياسات التي انتهجتها الأطراف المتنازعة من أجل كسب تأييد الحواضن الاجتماعية. يبرز الكتاب أهمية البعد الإقليمي في تفسير الأبعاد الطائفية في سورية، فالنزاع تجاوز الحدود الوطنية وتداخل مع تنافس إقليمي شاركت فيه دول وقوى ذات رؤى ومصالح متباينة، ما أسهم في تعزيز الخطاب الطائفي وتدويل الانقسامات ذات الصلة. وقد أصبحت سورية ساحة تتقاطع فيها صراعات النفوذ والتحالفات الإقليمية والتوترات الداخلية.

تكمن أهمية الكتاب في أنه يقدّم إطارًا نظريًا ومنهجيًا يساعد على فهم الديناميات المتغيرة للطائفية، بدلًا من التعامل معها، على أنها حقيقة ثابتة وقدرًا لا سبيل إلى تغييره. فالهويات من الممكن أن تتصلب أو تتراجع، تبعًا للسياقات السياسية والمؤسساتية. في الحالة السورية، ظَهَّرت الحرب أبعادًا كانت كامنة بصورة ما في المجتمع السوري، ولا سيما الطائفية الدينية (والإثنية). لكن الكتاب لا يفسّر الحالة السورية بالطائفية فحسب، بل بمناقشة كيفية إسهام الحرب الأخيرة ذاتها في إنتاج صور جديدة من الطائفية والتطييف. عليه، يمكن عدّ الكتاب مساهمة في الدراسات السورية والشرق الأوسط عمومًا، لأنه يجمع بين التحليل النظري والدراسة الإمبريقية، ويقدّم فهمًا نقديًا للطائفية بوصفها عملية سياسية واجتماعية متحركة، لا انقسامًا دينيًا راسخًا. لهذا، يُعدّ الكتاب مرجعًا، باللغة الإنجليزية، للمهتمين ببناء الدولة السورية في المرحلة الانتقالية، وفهم ما دُعي في أدبيات أجنبية وعربية، والكتاب منها، بـ "الحرب الأهلية"، مع الانتباه إلى حقيقة أن التناقض الرئيس، في الحالة السورية، هو بين شعب أكثري ثائر ونظام أقلوي مجرم (طائفي أو تطييفي، عمقًا وتوظيفًا).